

مسرح الطفل والتنشئة الثقافية

د. السعيد الورقي
أستاذ الأدب العربي - جامعة الإسكندرية - مصر

مسرح الطفل هو أحد وسائط الأطفال إلى أدبهم ، بل هو أهمها جميعاً ، حيث تجتمع الفنون جميعها مع الأدب ، فتجتمع القصة النثرية أو الشعرية مع حرفيات العرض المسرحي مع سائر ألوان فنون الفرجة . ومن هنا كان مسرح الطفل أهم وسيط فعال لدوره في تنمية الأطفال عقلياً وعاطفياً وجمالياً ولغوياً وأخلاقياً ، كما أنه أهم أدوات تشكيل ثقافة الطفل حيث ينقل للأطفال الأفكار والمفاهيم والقيم ضمن أطر حافلة بالموسيقى والغناء والرقص(١) .

ويلقي المسرح والتمثيل اهتماماً خاصاً من الأطفال ، فالطفل في مراحله المختلفة ممثل قدير يتقمص كل الأدوار ويعيشها بمفرده أو بصحبة آخرين في عالم واسع ممتد لا يعرف الحدود أو الاستحالة ، فكل شيء قابل للإمكان وقابل للتحول ، والحدود بين الواقعي وغير الواقعي معدومة في عالم يتداخل فيه المنطقي مع اللامنطقي بلا حدود قائمة أو فاصلة . فقطعة الخشب تصبح سيارة الوالد ، يقوم الطفل معها بدور الأب أو الأخ الكبير فيحركها في شارع من الخيال مزدحم بالسيارات ، يزعق في هذا ويشخط في الآخر ويضغط بقوة على الفرامل فتصدر صفيراً حاداً ، ويتوقف بها محاوراً البائع ليشتري شيئاً .

ونفس قطعة الخشب تتحول بعد لحظة إلى مكتب الوالد أو الأخ أو الأم ، فيجلس إليه بوقار الكبار وحكمتهم ، وينشغل بقراءة شيء مهم ، ويتناقش مع زملاء وزميلات في قضية مهمة .

ونفس قطعة الخشب أيضاً تصبح في لحظة أخرى موقد غاز في مطبخ تعد عليه الأم طعام الغداء وتحادث صديقة لها في التليفون أثناء هذا في موضوع خاص بالبيت والأطفال.

هكذا تشكل ألعاب الدراما الاجتماعية جانباً مهماً من نشاط اللعب عند الأطفال (٢) حيث يتمكن الطفل خلالها من التدريب على متطلبات الحياة التي سوف يمارسها ، كما أنها تشبع لديه رغبة الميل إلى التقليد ، حيث يقوم من خلالها بتقليد حركات وكلام الشخصية التي يقوم بها ، فيحقق بهذا شكلاً من أشكال التوحد الشخصي أو الوضعي لنماذج تعلق بها، لما تمثله - بالنسبة إليه - من معايير اجتماعية أو معايير للجنس في مجتمعه .

وهكذا ، فحيثما نجد تجمعاً للأطفال ، نجد نشاطاً تلقائياً له أبعاد العمل المسرحي من قصة وبناء درامي ينطوي على صراع وحبكة وتتوافر له عوامل الإثارة والتشويق ، ومن سيناريو توزع فيه الأدوار بين الرفاق ، أو يقوم الطفل بتقمص هذه الشخصيات بنفسه ، فهو الزوج "الأب" ، ثم هو في اللحظة التالية الزوجة "الأم" ثم هو بعد ذلك الابن ... إلخ . الشخصيات التي تقوم بالأدوار في مسرحيته المؤلفة بما تتطلبه الأدوار من مساعدات تعبيرية أخرى تختلط فيها الحركات والأصوات.

المسرح إذن ليس شيئاً مصنوعاً غريباً على عالم الطفل ، فعالم الطفل عالم مسرحي ، شاعر الأطفال وأذهانهم ، وتغذيتهم فنياً وأدبياً ووجدانياً .

فالطفل ليس مجرد مشاهد للمسرح ، وإنما هو بعد أساسي للعمل الدرامي إلى جانب المؤلف والمخرج والممثل ، ذلك أنه يعيش الفعل المسرحي معيشة اندماجية ، يساعده في هذا ما في المسرح من عناصر وخصائص فنية تمكنه من رؤية الحوادث أمامه بأشخاصها وفي أماكنها ، كما تنقله إلى عوالم أخرى يسعد بها من خلال توظيف المخرج لحرفيات المسرح من مناظر وديكور وإضاءة .

وتتحرك كل عوامل الإسهام هذه مع خيال الطفل وموقفه الاندماجي ، فتحقق غاية ما يهدف إليه التربيون وأصحاب المناهج النفسية والسلوكية في تربية الأطفال ، حتى أحسن الربط بينها وروعيت الخصائص التربوية والسيكولوجية والفنية المختلفة .

هكذا نشاهد ردود الأفعال التي يبديها الأطفال وهم يشاهدون الأعمال الدرامية ، فقد يستغرقون في الضحك ، أو يجهشون بالبكاء، أو يصابون بالفزع فيصرخون أو يهربون أو يختبئون تحت المقاعد .

وهي ردود تكشف بوضوح عن الموقف الاندماجي للطفل من ناحية ، كما نكشف من ناحية أخرى عن علاقة الطفل بالدراما المسرحية، وعن أهمية المسرح بالتالي بالنسبة للأطفال ، وقدرته في التأثير عليهم ، مما يجعل من المسرح وسيلة مهمة وذات تأثير كبير في تربية الطفل ، وإعداده وغرس القيم الجديدة في أعماقه .

بشكل عام مسرح الطفل وسيلة مهمة لتشكيل ثقافة الطفل اليومية والاجتماعية والمعرفية والأخلاقية والدينية والوجدانية .

ويستغل مسرح الطفل - على هذا النحو - لتحقيق العديد من الأهداف ذات الأهمية الكبرى، مثل الأهداف اللغوية والتذوقية ، والمعرفة العقلية والخلفية الاجتماعية ثم الأهداف النفسية الوجدانية ، بما ينمي المهارات الخاصة لدى الطفل وينمي ثرواته اللغوية ويزيد خياله اتساعاً وإدراكاً ، ويمده بالمعلومات العامة حول معالم البيئة من حوله ، ويقوم بتنمية قدراته العقلية المختلفة وحب الاستطلاع والرغبة في البحث مع توسيع الوعاء الثقافي له ، وإمداده بالقيم النافعة وغرس الفضائل في نفسه وتوجيهه نحو تبني الاتجاهات الاجتماعية المختلفة ، وتعويده على مواجهة المواقف حين يتم تخفيف التوترات النفسية وتطهيره من الانفعالات الضارة(٣) مع القدرة على اكتشاف القدرات والميول وتوجيهها .

وقد أدرك الكثير من الكتاب والفنانين هذه الأهمية للمسرح في حياة الطفل ، فكتب مارك توين عن مسرح الطفل يقول :

أعتقد أن مسرح الأطفال من أعظم مكتشفات القرن العشرين ، وأن قيمته التعليمية الكبرى - والتي لاتبدو واضحة أو مفهومة في الوقت الحاضر - سوف تتجلى قريباً .. إنه أقوى معلم للأخلاق ، وخير دافع إلى السلوك الطيب اهتدت إليه عبقرية الإنسان ، لأن دروسه لاتلقن بالكتب بطريقة مرهقة أو في البيت بطريقة مملة - بل بالحركة المنظورة التي تبعث الحماس وتصل مباشرة إلى قلوب الأطفال التي تعتبر أنسب وعاء لهذه الدروس . إن كتب الأخلاق لايتعدي تأثيرها الفعل ، وقلما تصل إليه بعد رحلتها الطويلة الباهتة ، ولكن حين تبدأ الدروس رحلتها من مسرح الأطفال، فإنها لا تتوقف في منتصف الطريق ، بل تمضي إلى غايتها .

* * *

والمسرح - مسرح الطفل - يضع أمام الأطفال واقعهم وجهاً لوجه بأحداثه وشخوصة وقيمه ، ويدفعهم من خلال الاندماج والمشاركة إلى أن يدركوا أن لهم دوراً في تغيير هذا الواقع ، ويقودهم إلى التفكير واحترام المثل النبيلة والالتزام بها ، وازدراء المفاهيم البالية ، وإشباعهم بروح الكفاح والوطنية وتوسيع مداركهم وتهذيب وجدانهم وإرهاف إحساساتهم وعواطفهم ، وإيقاظ شعورهم وامتاعهم وادخال الجمال إلى حياتهم وإعدادهم لأن يكونوا طاقات خلاقة منتجة ، فضلاً عن أنه يحفزهم إلى التطلع نحو تجارب جديدة(٤) .

كما أنه لايخص دور المسرح في تقديم إجابات مقنعة ومؤثرة عن العديد من الأسئلة التي تتسلل إلى نفوس الأطفال بهدوء وبلا مقاومة .

ولا شك في أن تعود الأطفال على مشاهدة المسرح - إضافة لما سبق - سوف يؤدي من ناحية أخرى إلى تكوين رصيد من التذوق المسرحي والخبرة المسرحية تجعل منهم بعد ذلك جمهوراً لمسرح الكبار ، يحسن التذوق والتلقي ، ويسهم بالتالي في خلق مسرح رفيع.

* * *

ويحقق مسرح الطفل كل هذه النتائج وأبعد منها من خلال أساليب العرض المسرحي مجتمعة والتي تضم التأليف والإخراج والديكور والموسيقى والمبنى والجمهور .

ويأتي النص المكتوب في بداية هذه الأساليب لأنه هو الأساس والبداية التي يبدأ - بعد الانتهاء منها - عمل سائر العناصر ، كما أنه من ناحية أخرى يعد العنصر الثابت المستقر في العرض المسرحي ، فالإخراج والتمثيل والديكور ، والموسيقى أساليب يطرأ عليها الكثير من التغيرات والتحولات أما النص المؤلف فيظل محتفظاً بشخصيته المتميزة(٥) .

ويتطلب هذا بلا شك - من المؤلف المسرحي أن يكون على وعي تام بكل حرفيات العرض المسرحي وامكاناته ، وهو ما يفسر لنا مانراه في الحقل المسرحي من شيوع المؤلف المخرج والمؤلف الممثل .

ولا شك أن وعي الفنان بكل عناصر العرض المسرحي من شأنه أن يضاعف من قدرته التعبيرية وأن يضيف مفردات عديدة إلى قاموسه المسرحي ، فلا يقتصر المؤلف مثلاً على التعبير بالحوار أو الحبكة أو الشخصيات، بل تمتد قدراته التعبيرية لتشمل الإخراج والتمثيل والديكور والموسيقى مما يساعد زملاءه في العرض المسرحي على إطلاق طاقاتهم التعبيرية بدورهم(٦) .

ويضاف إلى جانب هذه المعرفة العامة اللازمة لكاتب المسرح بشكل عام نجد أنه من الواجب على الكاتب الذي يكتب مسرحاً للطفل أن تكون لديه إلى جانب هذه المعرفة ، معرفة أخرى واعية بمناهج التربية والنتائج التي انتهى إليها علم نفس الطفولة وعلم نفس النمو حتى يستطيع أن يدرك العلاقة بين ما يكتب ، وبين جمهوره ، بل أكثر من هذا فإن عليه أن يدرك العلاقة بين ما يكتب وبين المرحلة العمرية التي يخاطبها في عمله، فكاتب أدب الأطفال لا يكتب لجمهور متجانس كما هو الشأن في الأدب العام ، وإنما يكتب لمرحلة تنقسم إلى مراحل في النمو النفسي والثقافي والاجتماعي.

فالكاتب الذي يقدم عملاً مسرحياً لأطفال المرحلة المتوسطة مثلاً ، عليه أن يغذي احتياجات هذه المرحلة ، وأن ينمي خصائصها، وأن يهيئ الطفل من ناحية أخرى للدخول في المرحلة التالية ، مرحلة الطفولة المتأخرة .

فمن المعروف أن انفعالات الطفل في هذه المرحلة انفعالات حادة وعابرة تتميز بالترقية والانتقال السريع من استجابة انفعالية إلى أخرى وذلك لأنه يعبر عن انفعالاته في هذه المرحلة بطريقة لا تحفظ فيها ، ربما لقصر مدى انتباهه مما يجعل من الممكن تشتته بسهولة ، فتتذبذب انفعالاته من أقصى طرف إلى الطرف الآخر(٧) .

وطفل هذه المرحلة قوي الاستطلاع إلى ما حوله ، يستبد به الفضول كثيراً خاصة فيما وراء الظواهر الطبيعية التي خبرها بنفسه ، ولهذا يجنح إلى بيئة الخيال الحر التي تظهر فيها الجنيات العجيبة والساحرات والعماليق والأقزام وغيرها من الشخصيات الغريبة التي تتضمنها القصص الخيالية كقصص ألف ليلة وأساطير الشعوب(٨) .

ومن سمات هذه المرحلة - المرحلة المتوسطة- أيضاً أن طفل هذه المرحلة يتمتع بدقة الملاحظة من الناحية الأخلاقية ويطالب بتطبيق القوانين والعدالة دون اعتبار للملابسات والظروف ، فإذا ما أقترفت شخصيته عملاً خاطئاً أو ارتكبت جرماً أو اثماً، يجب أن تعاقب . كما أن كل شخص عطوف رحيم خير يحمل قلباً طيباً يحب أن يكافأ ، هذا إلى جانب أن طفل هذه المرحلة يحتاج بشكل ملح إلى أن يفهم فكرة التسلسل الزمني ومن ثم يحتاج إلى ما يوضح له على الأقل مستويات الزمن من ماضٍ وحاضر ومستقبل(٩) .

هذه هي بعض خصائص مرحلة الطفولة المتوسطة والتي تتطلب ممن يكتبون لهذه المرحلة أن يعوها جيداً حتى تفي أعمالهم بحاجة المرحلة العمرية التي يكتبون لها .

وكل مرحلة من مراحل الطفولة على هذا النحو لها شروطها وخصائصها ، وتحتاج بالتالي إلى ما ينميها ويوجهها وفقاً لما انتهى إليه علماء التربية والمناهج وعلم النفس والاجتماع .

والنص المسرحي المكتوب لمسرح الطفل يحتاج إلى كاتب مسرحي خاص ، فليس كل كاتب مسرح يصلح لأن يكتب للطفل . فهو يحتاج فوق موهبته المسرحية إلى موهبة أخرى لديها القدرة على استيعاب عالم الطفل . والقدرة على استرجاع رصيد تجاربه في زمن الطفولة ، بل أكثر من هذا يحتاج كاتب أدب الأطفال إلى أن يحيل هذه الأحاسيس بالطفولة إلى ممارسة حية متصلة بحياة الأطفال وشاعرهم وشطحات خيالهم الجامح ، بذلك يستطيع أن يقدم لهم من العبارات والأساليب الحوارية ، الحركة والنشاط والشم والنظر والمذاق الطفولي.

وكاتب مسرح الطفل ، شأنه في هذا شأن طبيب الأطفال ، فكما أن طبيب الأطفال عليه أن يتقن أولاً الطب العام ، كذلك كاتب مسرح الطفل ، عليه أن يعرف أولاً أصول الفن المسرحي العام بتقاليده وقواعده ، ثم يوظف هذه المعرفة بعد ذلك فيما يكتب للأطفال، والكاتب الناجح حين يعرف الأصول العامة للكتابة الأدبية ثم يطبق معلوماته على ما يكتب للأطفال ، سوف يدرك أن عالم الطفولة عالم متغير ومتطور ينتقل الطفل بين مراحله المختلفة، ولكل مرحلة اهتماماتها وميولها وخصائصها الفكرية والسلوكية والمزاجية والعاطفية ، كما أن لكل مرحلة مقدرتها الإدراكية على فهم الصور والمعاني والمضامين ، ومن ثم فالكتابة للأطفال تتطلب منه رصيد حركة الشخصية الإنسانية في مراحل نموها وتطورها ، حتى تأتي كتاباته مراعية لمتطلبات كل مرحلة ومتوافقة معها(١٠) .

* * *

ويتسم النص المسرحي المكتوب للطفل بسمات أخلاقية تربوية ، فهو لايكتفي بأن يمنح الطفل المتعة والتسلية ، أو أن ينمي فيه الإحساس بالجمال وتذوقه ، ولكنه يحرص - كل الحرص - على أن ينمي ويقوي فيه قيماً أخلاقية تبني فيه الإنسان الذي يقدر الخير ويحبه على أسس دينية اجتماعية وإنسانية ، كما يسعى إلى تزويده بتجارب البشرية التي تطور وعيه وطريقة فهمه للحياة(١١) .

بشكل عام مطلوب من مسرح الطفل حتى يكون مؤسسة للتنشئة الاجتماعية والثقافية والنفسية والفنية أن يحقق ما نريده لأطفالنا وفق النتائج التي انتهى إليها علماء المناهج والتربية والنفس (علم نفس الطفولة - علم نفس النمو) وذلك بتنمية شخصية الطفل وصقل سلوكه وإعداده ليعيش إيجابياً مع مجتمعه ، ملتزماً بالأنماط السلوكية التي تقوم على الحب والعدل والمساواة والخير للإنسانية ، وتقوية روح التضامن والتعاون لديه ، وإكساب المهارات المختلفة التي تساعده على الإنتاج أولاً وعلى كسب الثقة بالنفس ، ثانياً كما تساعده على تنمية خيالاته بما يساعد على تنشيط القدرات الابتكارية لديه ، ذلك أن كل ما يقدم للأطفال من معلومات وحقائق ، إن لم تدفعهم إلى التفكير والابتكار فلا قيمة حقيقية له ، فليس المهم هو تعليم الطفل ، بل المهم هو تعليمه كيف يتعلم وكيف يفكر .

* * *

ولمسرح الطفل دوره المهم والأساسي في تنمية ملكات التذوق عند الأطفال ، وإرهاف الحس الجمالي لديهم ، حيث يجتمع في فن المسرح كل صور الفنون التعبيرية من فنون أدائية وفنون حركة وفنون تشكيلية .

ويساهم مسرح الطفل على هذا النمو في معاونة الطفل على تذوق الفن والتعرف عليه ، كما يساعده على الإحساس بالجمال ومعايشته، فيوفر بهذا السلامة النفسية للأطفال ، فيتمكنون خلالها من الإحساس بصورة إيجابية بالنشاط والقوة والحيوية والسعادة مما يؤهلهم بعد ذلك للتفكير الإنشائي والأداء البناء من ناحية ويبعدهم عن كل ما يثير فهم القلق والاكتئاب .

على هذا وأكثر يستطيع العمل المسرحي الحقيقي أن يحققه لأطفالنا ، وهو ما نريده لأطفالنا ونحن نتحدث عن التنشئة ومؤسساتها وأساليبها المختلفة ، فمسرح الطفل يستطيع أن يكون أهم مؤسسة للتنشئة بصورها المختلفة والمتكاملة ، كما أنه يستطيع أن يساهم بدور فعال في تنمية القدرات الابتكارية عند الأطفال وتنمية مهارات التذوق الفني لديهم ، أو على الأقل يساعد الأطفال على أن يتعلموا كيف يفكرون وكيف يتعلمون وكيف يتذوقون ويشعرون وهذا يتطلب بطبيعة الحال - كما أوضحنا - مهارة خاصة ومسئولية محددة من كاتب مسرح الطفل.